مظاهر القراءة النقدية عند القدماء

أ. كريمة صنباوي
جامعة أدرار (الجزائر)

لقد اهتمت الدراسات اللغوية المعاصرة . و لا سيما الأسلوبية منها . بدور القارئ في إنتاج الخطاب اللغوي و أكدت أن له حضورا بينا يتمثل في أن المتكلم حين ينتج خطابه ، يضع في ذهنه كل ما يتعلق بطبيعة المتلقي ، فيتصرف في توجيه مسلكه اللغوي بما يتلاءم مع تلك الطبيعة[1]

و نحن إذ نشير في هذه البداية إلى الدراسات المعاصرة ، فما ذلك إلا تماشيا و تلك الحماسة التي تصاحب كل جديد ، و التي تخرجه عن الموضوعية ،فيتناسى أصحابه إنجازات من تقدمهم حتى كأن ما يأتون به يفتح به عليهم أول مرة و لم يسبقهم أحد إليه .

إن هذه الحماسة المشار إليها تحاول أن تؤرخ لفعل القراءة و التلقي بفترة الحداثة أو المعاصرة ، و تنسبه للنقاد الغربيين ، ذلك حينما أكد أغلب المتبنين لهذه الحماسة ، و على رأسهم غسان السيد الذي يقول:" إن الاهتمام بالقارئ هو من فتوح النقد الغربي الحديث . و إذا استعرضنا تاريخ النقد القديم نجد أن النقد ركز على النص ، و على مبدع النص متجاهلا تجاهلا تاما القارئ . كان هذا حال النقد العربي القديم الذي انصب اهتمامه على النص الأدبي و حسب"[2]

ذهب هؤلاء إلى القول ، بأن أمر القراءة و مسألة الاهتمام بالقارئ لم تكن من اهتمامات النقاد القدماء ، إذ إن هؤلاء لم يقفوا في عملية الإبداع إلا على النص و نسيجه ، لقد تناسى أصحاب هذا الاتجاه أنه في هذا الوقت الذي أصبحت الدراسات الحديثة و المعاصرة تعمل على التنظير لعملية التلقي وتطبيق مختلف المناهج عليها ، كان للعربي منذ الجاهلية أن تخطى كل ذلك تاركا لذاته المتلقية كل الحرية في تتبع العمل الأدبي ذلك أن طابع الشفوية كان السمة الغالبة على التلقي في كل أنحاء البيئة العربية فالعرب قالت الشعر بالفطرة والسليقة ، و تلقتة كذلك بالفطرة و السليقة.

لقد أولى اليونان أهمية كبرى بالقارئ و القراءة و هو ما ظهر عند أرسطو الأب الروحي للنقد اليوناني ، بل النقد الأدبي بعامة حيث إنه تحدث عن فلسفة جمال التلقي في مؤلفاته المختلفة ، و في هذا يقول محمود عباس:" ربما كان أرسطو في تاريخ الحركة النقدية من أبرز رواد الفكر اليوناني اهتماما بفلسفة التلقي أو مفهوم الجمال في استقبال النص ففي رصيده الفكري و النقدي يتمثل لنا اهتمامه بهذه المسألة ، و كأنها محور هام يستقطب تفكيره و يستجمع فلسفته في الحديث عن أجناس الأدب" [3]

إذا كان ذلك فالعرب لم يختلفوا عن اليونان في هذا الاهتمام ، بل إن القارئ في المجتمع العربي القديم ، كان بمثابة الهاجس الذي يخشى من وقوعه كل فرد مبدع ، فهؤلاء الشعراء الجاهليون ينمقون

القصائد و يعيدون النظر فيها لمرات عدة ، و ما ذلك إلا اعتبارا للمتلقي و خوفا من وابل انتقاداته. يقول الحبيب منسي:"إن حضور المتلقي في النقد القديم أمر ملفت للنظر إذا ما قيس بالباث ذاته ، و كأن حضوره يؤرق الشاعر و يدفعه إلى إجادة صنيعه الذي تأرجح بين الارتجال العبقري و التجويد الذي يستعبد صاحبه فلا يخرج على الناس إلا و قد استدار الحول و تذهبت القصيدة...."[4]

إن هذا القول للباحث منسي إنما يدل على أن العمل الأدبي لا يمكن أن تبرز قيمته أو حتى تكتب له الحياة إلا إذا أولاه القارئ بعنايته مهما كانت طبيعة هذا القارئ ، قارئ عاد أو قارئ محلل ناقد . فالقيمة الفنية للعمل لا تظهر إلا في اللحظة التي يستنطق فيها القارئ النص.

و إذا كانت هذه الدراسة تركز على إشكالية مظاهر القراءة النقدية عند القدماء فإنه يجدر بي الإشارة إلى أن القدماء أدركوا ـ إلى أقصى حد ـ وظيفة القارئ المستقبل للنص ، بل و صلوا حتى إلى تحديد موقعه ، و ذلك في سياق تحديدهم لماهية الشعر و أركانه ، هذا و تجدر بي الإشارة كذلك إلى أن القارئ الذي تم تحديد هويته عند القدماء هو شبكة من الذوات ، ذات منصتة سامعة و ذات مشاهدة و ذات قارئة و ذات رابعة هي الذات المبدعة المؤولة و قد كان القدماء ينظرون إلى هذه الذوات بعين الاعتبار.

إن الذات القارئة هي موضوع مداخلتنا في هذا اليوم و هي التي يمكنها أن تقودني إلى الكشف عن أشكال القراءة عند القدماء و كذا مستوياتها و من ثمة الوصول إلى القراءة النقدية و تحديد المنهج المعتمد فيها ثم طرح السؤال هل أحدثت القراءة النقدية إشكالية لدى القدماء أو لم تحدث؟؟

أقول هذا علم أن النقد العربي القديم كان أكثر موضوعية من نظرية التلقي الحديثة فهو لم يجعل حرية القارئ مطلقة بل قيدها ، باستعماله احتمالية النص المقروء ، فالقارئ ليس حرا حرية مطلقة في فهم النص و تأويله كما يريد و يؤكد هذا الدارس عبد القادر عبو الذي يشير إلى أن النقاد القدامى شكلوا لأنفسهم هيئة قرائية تدل على تشكيلات قرائية في المجتمع ، و ذلك لأن تلقي الشعر و استقباله لدى العرب القدامى لم يخضع لذوق واحد محدد سلفا ، و لأن كل ذوق كان مزودا بخلفية معرفية و علمية و مذهبية فطغى على ساحة النقد الأدبي ما يسمى بظاهرة الخصومات و الوساطات و المفاضلات[5] و قد أسهم كل هذا في البحث عن جماليات النص الشعري ثم الحكم عليه بالجودة أو الرداءة . فالأحكام النقدية عند القدماء كانت تنبع من صميم النص و من قناعات النقاد و ثقافاتهم المتعددة .

لقد نبه أحد الباحثين في دراسة له حول المنهج التاريخي بأنه المنهج الذي يعول كثيرا على دور البيئة و التاريخ في الأدب و الشعر. أشار هذا الدرس إلى أن المنهج كان معتمدا عليه كثيرا من طرف النقاد العرب القدماء حيث توصل هؤلاء بحسهم السليم إلى أثر بيئة البادية في شعر العرب[6] ووقفوا على عدة معالم اجتماعية و بيئوية هي من صميم أعراف المجتمع العربي ثم أكد أن مثل هذه الملامح هي ما غلب على قراءات نقادنا القدماء. غير أن الدارس عبد الملك مرتاض يصل بقراءة النقاد القدماء إلى أبعد من هذا، وذلك حينما يحدها بثلاثة مستويات ، المستوى النحوي و اللغوي و الأسلوبي ، في الغالب كان القارئ يعمد إلى شرح الألفاظ الغريبة و يفك غموضها ثم يأتي بعد ذلك و يخرج النص الذي شرحه تخريجا نحويا مقدرا و معربا ، و كان مثل هذا التخريج يكمل شرح الألفاظ و يكشف عن

البنية الأسلوبية للكتابة المقروءة و هذا يساعد على الوصول إلى المستوى الثالث الذي يعمل على نثر البيت و تلخيصه في صورة أسلوبية .

و الذي تجدر الإشارة إليه أن أغلب النقاد القدماء ، كالجاحظ و ابن سلام و الجرجاني و غيرهم إنما وقفوا في دراساتهم النقدية على ظواهر معينة و موضوعات و قضايا هي في عمومها جزئيات من النص ككل هذا النص الذي لم يكن يتعدى البيت الواحد أو البيتين . فقراءات هؤلاء لم تتناول النصوص الشعرية تناولا شموليا و لم يحدث هذا إلا نادرا .

إن هذا يؤكد أن القراءة النقدية أسست تقاليدها على تشريح النص المقروء، و الذي يساعدها على ذلك هو التطور الحاصل في علوم اللغة و البلاغة و منه فشرح النصوص كان الصفة الغالبة على القراءة النقدية هذه القراءة التي اجتمع فيها 'إبراز جماليات البيان و البديع و حسن التخلص و مبررات تعدد الأغراض و هو ما ساعد على تشعب توجهات القراءة النقدية بتوجه أصحابها ، فذهب النحويون إلى التراكيب النحوية في النص و بحثوا عن الشواهد فيها و موطن اللحن و الخطأ ، و ذهب البلاغيون إلى استنباط جمالية النص الفنية و منه البحث عن أسرار البلاغة و حسن البيان وغير ذلك مما يدخل في عمق البحث البلاغي .

إن الذي لا بد من التأكيد عليه و الذي يتضح جليا من خلال ما سبق هو أن النقد حينما اربط بالقراءة عند القدماء فإنه ساهم و بشكل مميز في الربط بين القارئ و النص و أصبح النص هو الذي يحدد نوعية القارئ و بذلك فقد قسم النقد القراء إلى طبقات :

ـ **الطبقة الأولى:** هي طبقة القراء الممتلكين للمنحى التقبلي لتذوق النص و هم يمتلكون الأدوات الإجرائية لاختراقه فهؤلاء قد ارتقوا إلى مستوى هذا النص.

ـ **الطبقة الثانية:** هم طبقة القراء الذين تتحدد علاقتهم مع نص مضطرب مفكك، مفتقر إلى الإحكام و التناغم الجمالي ، إنهم القراء الذين يقول عنهم القاضي الجرجاني :"..... أما المختل المعيب و الفاسد المضطرب فله وجهان أحدهما ظاهر يشترك في معرفته و يقل التفاضل علمه....."[7]

و ما يدل هذا إلا على الوعي العميق للعلماء القدماء بجماليات النص الفنية . فهذا القاضي الجرجاني قدم رأيه في النص و متلقيه و سبقه إلى هذا نقاد آخرون أمثال ابن سلام الجمحي و ابن قتيبة ثم جاء بعده آخرون أمثال عبد القاهر الجرجاني و حازم القرطاجني و غيرهم و سأحاول بسط بعض آرائهم حول النص و قراءته .

فابن سلام قد ساهم بقراءته الناقدة في الوقوف على ما أصاب الشعر من انتحال و تلفيق و أكد أن ذلك ما ذهب بالشعر و بريقه يقول : " و في الشعر مصنوع مفتعل ، موضوع كثير لا خير فيه و لا حجة في عربيته و لا أدب يستفاد و لا معنى يستخرج ..."[8] . إن ابن سلام يدعوا من خلال هذه القراءة إلى إحاطة الشعر بسياج وقائي للحفاظ على جماله و روعته . أما ابن قتيبة فيرى أنه لا يمكن الحكم على النص إلا بعد قراءته قراءة جادة و يدعو إلى عدم النظر إلى صاحب النص بل إلى النص ذاته .

و أما عبد القاهر الجرجاني فقد أصر على أن النقد عملية تلق لا يجب أن تظهر آثاره على الناقد ، إنما تظهر في أحكامه على النص . إنه يؤكد بهذا على حركة التفاعل بين النقد و النص و لذلك عمل هو على انتهاج المسار الوصفي المؤيد بالشواهد المحللة تحليلا لغويا و بلاغيا على أساس منهجي متين يتمثل في نظرية النظم ، فركز على حركات النفس أثناء عملية القراءة و رصد الآثار النفسية و الجمالية التي يتركها الأثر الفني في وجدان القارئ[9]

و من هنا يمكن القول إن القراءة النقدية عند العلماء القدماء و بمناهجها المحدودة جدا لم تضيق مطلقا على النص . عكس ما نجده اليوم مع المناهج القرائية الحديثة و بخاصة عندما وجدنا النقاد القدماء و ببعد نظر و ذكاء لطيف قد توجهوا في قراءتهم توجهات متعددة نحوية و لغوية و أسلوبية . و هي توجهات ـ و إن رأى البعض قصور بحثها ـ إلا أنني أرى أنها كانت السبيل الأول للكشف عن الكثير من جماليات النصوص القديمة و عبقرية أصحابها.

الهوامش والإحالات:

[1] ينظر د ابتسام حمدان فاعلية التلقي عند عبد القاهر الجرجاني. مجلة التراث العربي . اتحاد الكتاب العرب عدد114 حزيران2009 ص190

[2] ينظر غسان السيد الاهتمام بالمتلقي ليس فتحا جديدا . المجلة الثقافية .

[3] د محمود عباس عبد الواحد قراءة النص و جمالية التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة و تراثنا النقدي . دار الفكر العربي . القاهرة ط1(1996) ص45

[4] د الحبيب منسي . القراءة و الحداثة(مقاربة الكائن و الممكن في القراءة العربية). منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000 ص 20

[5] ينظر د عبد القادر عبو . مجلة الفوانيس السينمائية. جامعة سعيدة 12-ـ02 ـ 2008

[6] ينظر خالص مسور . مناهج النقد الأدبي السياقية

[7] الجرجاني . الوساطة بين المتنبي و خصومه . تح محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي . ط2 1951 ص 413

[8] ابن سلام الجمحي . طبقات فحول الشعراء . قرأه و شرحه علي محمد البجاوي . د ت . د ط

[9] د ابتسام حمدان . فاعلية التلقي عند القاهر الجرجاني . ص 198